الهجرة في القرآن والسنة

إبراهيم النعمة

كانت هجرة النبي ﷺ من مكة الى المدينة، منطلقا لنشر شريعة الإسلام بين كثير من القبائل العربية التي انضوت تحت لواء الإسلام، والترقي بها من طور إلى طور. وقد تحدث القرآن الكريم عن تلك الهجرة، وتحدث عنها النبيﷺ أيضا . وأبدأ بتعريف الهجرة في اللغة والإصطلاح فأقول وبالله التوفيق:

الهجرة في اللغة: مفارقة بلد إلى غيره، وهي اسم من هاجر مهاجرة.

وفي الإصطلاح: الإنتقال من دار الكفر إلى دار الإسلام، فإن كانت قربة إلى الله فهي الهجرة الشرعية(١).

ولقد وردت آيات القرآن الحكيم، متحدثة عن هجرة النبيﷺ من مكة إلى المدينة، والثناء على المهاجرين بالأوصاف الحميدة، وذكر النعم التي أنعمها الله على المهاجرين في الدنيا والآخرة. أما الذين لم يهاجروا، فجاءت الآيات متوعدة لهم بسبب تخلفهم عن الهجرة.

ولا نريد هنا أن نتحدث عن هجرة النبيﷺ إلى الطائف ولا هجرة المسلمين إلى الحبشة، ونكتفي بهجرته ﷺ إلى المدينة وما ورد من مدح وثناء على المهاجرين اليها، والوعيد على من تخلف عنها.

والذي يبدو من أحاديث صحيحة وردت عن النبيﷺ أن الله ﷻ هو الذي اختار لنبيه الهجرة إلى المدينة بما رآه النبيﷺ في المنام –وما يراه الأنبياء في المنام حق–، فقد ورد في الحديث:

«رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب»(٢).

وجاء في الحديث أيضا:

---

(١) ينظر القاموس المحيط للفيروز آبادي، والمصباح المنير للفيومي، والتعريفات للجرجاني والمفردات في غريب القرآن للراغب الإصفهاني.

(٢) رواه البخاري في كتاب المناقب (باب: علامات النبوة في الإسلام) حديث ٣٦٢٢، ومسلم في كتاب الرؤيا (باب: رؤيا النبيﷺ) ، حديث ٢٢٧٢.

«إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لأبتين»[1].

وحين ننظر في هذين الحديثين وغيرهما نرى أن ما رآه النبي في المنام يمكن أن تكون الهجرة إلى المدينة وإلى غيرها، ثم جاء ما رآه النبي من الصفة المختصة بالمدينة، فتعينت الهجرة اليها.

حب النبيﷺ لمكة

كان النبي صلوات الله وسلامه عليه كثير الحب لموطنه الأول مكة، فلم يهاجر إلى المدينة المنورة إلا بعد أن اشتد الأذى على المسلمين من كل جانب، ولم يهاجر إلا بعد أن تعرضت حياته للخطر، ولم يهاجر إلا بعد أن أذن الله تعالى له بالهجرة لأن الأنبياء ملزمون بأخذ الاذن منه تعالى في أمر الهجرة، وقد أصاب سيدنا نبي الله يونس عليه السلام ما أصابه لما غاضب قومه وخرج من نينوى من غير أن يأخذ الإذن من الله تعالى. لقد كانت مكة أحب بلاد الله الى النبيﷺ ، ويبدو حبه الكبير لها حين خاطبها بقوله:

«ما أطيبك من بلد، وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك»[2].

حتى بعد أن هاجر النبي إلى المدينة، كان يدعو الله أن يحبب إلى المسلمين المدينة كما حبب لهم مكة أو اشد فقال:

«اللهم حبب الينا المدينة كما حببت مكة أو أشد»[3].

وكان صلوات الله وسلامه عليه إذا أتى آتٍ من مكة يسأله عن أحوالها. فلما جاء (أصيل بن عبد الله الهذلي) قادما من مكة سأله النبي الكريم:

«يا أصيل كيف عهدت مكة؟».

وبدأ أصيل يصف لها دروبها وأشجارها وثمارها، فتملك النبي الحنين لها حتى بلغ مبلغ الحزن؛ فطلب منه أن يقف عن الإسترسال في وصفها قائلا له: «حسبك يا أصيل،

---

(١) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار (باب: هجرة النبيﷺ وأصحابه إلى المدينة)حديث ٣٩٠٥.

(٢) رواه الترمذي برقم ٣٩٣٥ وقال: هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه. تحفة الأحوذي ٣٩٥/١٠.

(٣) رواه البخاري في كتاب فضائل المدينة (باب: ١٢)، فتح الباري ١٢٩/٤، الطبعة الثالثة ١٤٢١-٢٠٠٠، دار السلام في الرياض، ودار الفيحاء في دمشق، ورواه مسلم في كتاب الحج (باب: الترغيب في سكنى المدينة) صحيح مسلم ١٠٠٣/٢.

دع القلوب تقر، لا تحزنا»[1].

وقبل أن يهاجر النبي ﷺ إلى المدينة كان المشركون قد ائتمروا على قتل النبي الكريم وجاء جبريل فأخبره بما عزم عليه المشركون، وبين له أن الله تعالى قد أذن له في الهجرة، وقد أنزل الله تعالى في شأن ما عزم عليه المشركون قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ سورة الأنفال

وفي هجعة من الليل خرج النبي الكريم من داره وقد أحاط بالدار فتيان المشركين ليقتلوه، فأخذ الله على أبصارهم فلم يروه. وأخذ النبي الكريم حين خرج من داره كفا من التراب نثره على رؤوسهم وهو يتلو قول الله تعالى:

﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ سورة يس

وقد ألقى الوحي الكريم في قلبه ﷺ وعلى لسانه هذا الدعاء حين عزم على ترك مكة ليهاجر إلى المدينة: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾[2].

ونقرأ القرآن الكريم، فنجد الآية التي تحدثت في هجرة النبيﷺ إلى المدينة هي قوله تعالى:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ سورة التوبة/ ٤٠.

الأحوال التي نزلت فيها الآية

نزلت هذه الآية في أمر (غزوة تبوك) وتسمى (بغزوة العسرة)؛ للضيق الإقتصادي

---

(١) اسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ١/١٢١-١٢٢، طبعة دار الشعب، القاهرة، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ١/٩٣ بتحقيق: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة.

(٢) سورة الإسراء /٨٠، والحديث رواه البخاري ومسلم وابن ماجه والحاكم والبيهقي.

الشديد الذي كان يعاني منه المسلمون في هذه الغزوة. وقد دعا النبيﷺ المسلمين إلى الإنفاق في سبيل الله لتجهيز الغزوة فقال:

«من جهز جيش العسرة فله الجنة» فجهزه عثمان[١]. فقد جاء بألف دينار (ذهبا) صبها في حجر النبيﷺ والنبي الكريم يقول:

«ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم» يرددها مرارا [٢].

وشارك فقراء المسلمين بما يستطيعون .. وفي هذه الغزوة لاقى المسلمون ما لاقوا من الصعوبات؛ إذ تبوك بعيدة عن المدينة فهي تبعد ٧٧٨كم عنها، وكانت حرارة الصيف التي وقعت فيها الغزوة شديدة. ومع ذلك فلم يتخلف من الصحابة إلا العدد القليل من ذوي الأعذار الصحيحة إلا ما كان من ثلاثة منهم ثم تاب الله عليهم في آيات نزلت في توبتهم.

مع تفسير الآية الكريمة

جاء الخطاب في الآية للمتثاقلين عن الجهاد، وفيه تأنيب لهم، فكأن الآية تقول لهم: إن لم تنصروا رسولكم بالجهاد معه، فإن الله هو الذي نصره لما أراد المشركون قتله فأوحى اليه بالهجرة ولم يكن معه من وسائل الدفاع شيء، ولم يكن معه إلا صاحبه أبو بكر وكانا أعزلين من السلاح المادي، فكانت نجاته معجزة باهرة:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾سورة التوبة/ ٤٠ .

ومعنى (ثاني اثنين) أي أحد اثنين، وهما رسول الله ﷺ وأبو بكر.

ويدخل النبيﷺ وأبو بكر الغار في جبل ثور، ويلحق المشركون بهما حتى صاروا أمام الغار. ويفزع أبو بكر خوفا على النبي الكريم فيقول له: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا، فيجيبه النبي الكريم بقوله:

«يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[٣].

وقد سجل الله ما قاله النبي لأبي بكر في آية كريمة تتلى آناء الليل وأطراف النهار:

---

(١) رواه البخاري في كتاب الوصايا. وانظر: فتح الباري لابن حجر ٤٠٧/٥ باشراف محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، دار المعرفة، بيروت.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، والترمذي في كتاب المناقب، والحاكم في المستدرك ١٠٢/٣.

(٣)رواه الإمام احمد في مسنده، والبخاري في كتاب التفسير –تفسير سورة براءة– ومسلم في كتاب فضائل الصحابة (باب: من فضائل أبي بكر) رقم ٢٣٨١.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ سورة التوبة/ ٤٠

ونقف هنا مع هذه المعية ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾، فنجدها تعني أن الله مع النبي الكريم وأبي بكر فكان النبي يقول لأبي بكر لمَ الخوف إذا كان الله معنا؟! وهذه المعية في الآية اختص الله بها رسول الله وأبا بكر فلم يشركهما فيها أحد من الناس فهي تأييد للنبي الكريم وأبي بكر.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ ﴾ فيه ما فيه من التشريف لأبي بكر فهو الذي فاز بهذا المقام الكريم؛ إذ انفرد بصحبة النبي في هجرته، وقد استفاضت صحبته للنبي الكريم حتى قال جار الله الزمخشري:

(وقد قالوا: مَنْ أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر، لإنكاره كلام الله، وليس ذلك لسائر الصحابة)[1].

وقال رسول اللهﷺ لأبي بكر:

«أنت صاحبي على الحوض، وصاحبي في الغار»[2].

وتتنزل رحمة الله :

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ سورة التوبة/٤٠ .

إن هذه السكينة مصدرها من الله، والمراد بها: الطمأنينة، نزلت: إما على النبي، أو على أبي بكر الصديق، وأيده بتقويته وحفظه بملائكته تعالى، فقد أعدهم الله لحفظ رسوله في الغار، وصرف وجوه الكفار عن رؤيته ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ ... كانت هذه الآية درسا بليغا ألقاه الله تعالى على الناس ليستجيبوا لكل ما أمر به النبي الكريم وينتهوا عن كل ما نهى عنه.

الثناء على المهاجرين بالأوصاف الحميدة

كثرت آيات القرآن الكريم في الثناء على الصحابة الذين هاجروا في سبيل الله، سواء كانت الهجرة إلى أرض الحبشة أو إلى المدينة المنورة، من ذلك قوله تعالى:

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري ٢/٤٠، مطبعة الحلبي ١٣٦٧-١٩٤٨.

(٢) رواه الترمذي في كتاب المناقب (باب: في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما).

١- ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾ سورة الحشر/ ٨

وفي هذه الآية تبيان لدوافع هجرتهم: إنه الإخلاص لله، (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) وفيها غايتها: (وينصرون الله ورسوله) وفيها -أيضا- التنويه بهم، فإنهم لا يبتغون بهجرتهم مغنما دنيويا، أو متاعا من أمتعة الحياة.

٢- ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ سورة التوبة/١٠٠.

هذه شهادة من الله تعالى للمهاجرين والأنصار ولمن تبعهم باحسان. فقد سارع المهاجرون الخطا إلى الهجرة لما دعاهم النبيﷺ لذلك، مفضلين حب الله ورسوله على كل شيء فقد ملأ الإيمان قلوبهم فحُق لهم أن يكونوا سادة المسلمين.

٣- ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ سورة النحل.

تحدثت هاتان الآيتان عن المهاجرين الأولين إلى الحبشة، اولئك الذين صُب عليهم العذاب صبا حتى اضطرهم المشركون إلى الهجرة إلى الحبشة خشية أن يفتنوا في دينهم. كانت هجرتهم في سبيل الله، فجاء الجزاء من الله على صبرهم وهجرتهم وأجر الهجرة في الآخرة لا يشبهه أجر ونعيمه لا يشبهه نعيم...

وهكذا الآيات التي وردت في سورة البقرة رقم ٢١٨، والتوبة رقم ١١٧، ورقم ٢٠، وغير هذه الآيات.

ما وعد الله به المهاجرين

١- ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ سورة النساء/١٠٠.

تشير هذه الآية إلى المكانة الطيبة التي ينعم بها المهاجرون من أرض الشرك فرارا بدينهم، مع السعة في أرزاقهم أما من يموت من المهاجرين قبل أن يبلغ مقصده، فقد ثبت له جزاء عمله على الله، فضلا من الله تعالى.

٢- ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ سورة آل عمران/ ١٩٥.

اجاب الله دعاء المخلصين الصادقين مبينا أنه لا يضيع جهد من عمل عملا صالحا فالمهاجرون الذين تحملوا الأذى في سبيل الله ليسترن الله عليهم معاصيهم كما سترها عليهم في الدنيا، فلا يحاسبهم عليها، وبعد ذلك يدخلهم تلك الجنان العظيمة، جزاء من عند الله.

الوعيد لمن تخلف عن الهجرة

وردت آية سورة النساء متوعدة بعقوبات من الله وسوء المصير لمن يتخلف عن الهجرة فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ سورة النساء/٩٧ – ٩٩.

وبعد:

فلما فتح الله تعالى مكة للمسلمين ودخل الناس في دين الله أفواجاً، قال النبيﷺ.

«لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا»[١]:

لقد كانت الهجرة من مكة إلى المدينة واجبة على المسلمين لما كان الكفر مهيمنا على مكة يذيق من آمن بالله واليوم الآخر أشد العذاب ليعيدهم إلى الكفر والوثنية بعد أن

(١) متفق عليه: رواه البخاري في كتاب الجهاد (باب: وجوب التنفير)، و(باب: فضل الجهاد) و(باب: لا هجرة بعد الفتح)، ومسلم في كتاب الإمارة (باب: المبايعة بعد فتح مكة).

منَّ الله عليهم بهذا الدين. ولمّا فتح الله لرسوله محمدﷺ مكة في رمضان سنة ثمانٍ من الهجرة، صارت مكة دار إسلام لا يهاجر المسلم منها.

ونأخذ من هذا الحديث وأحاديث أخرى أن الهجرة تكون واجبة من بلاد الكفر التي لا يستطيع المسلم فيها إقامة شعائر دينه، وأما إذا كانت البلاد بلادا إسلامية فلم تجب الهجرة منها إلى غيرها والله تعالى أعلم.

وصلى الله على سيدنا محمد صاحب الهجرة وعلى آله وأصحابه أجمعين.